العثمانيون وقراصنة رودس

للدكتور كمال الدسوقي

خطورة قراصنة رودس :

جزيرة رودوس ، جزيرة صغيرة تمتد من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي ، على مسافة عشرة أميال من الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى . وهي أقرب جزر بحر الأرخبيل لأراضي الدولة العثمانية . وقد سقطت كل الجزر المحيطة بها ، في أيدي العثمانيين ، وبقيت رودس وحدها تحت السيطرة المسيحية ، الى أن فتحها السلطان سليمان القانوني . والواقع أن هذه الجزيرة الصغيرة ، قد شغلت فكر سلاطين آل عثمان ، ولم يهملوا شأنها ، ولكن قوة تحصينها ، وظروفها الخاصة وقفا حائلاً أمام كل من يفكر منهم في فتحها .(١) .

ومع اظهار العداء الشديد للمسلمين ، نجحت هيئة فرسان القديس يوحنا ، فانهالت عليهم الأموال ، واستغلوا مختلف المبالغ ، في تحصين قلعة جزيرتهم ، التي صمدت أمام هجمات جيوش محمد الثاني ، فاتح القسطنطينية وقويت تحصينات الجزيرة عاماً بعد عام ، حتى أنها أصبحت حين تولى سليمان القانوني الحكم عام ١٥٢٠ م ، تعد من أقوى المراكز الدفاعية في أوروبا بصفة عامة . وزاد من أهميتها ، رغم صغر مساحتها ، ان فرسان القديس يوحنا ، كانوا يكسبون أموالاً طائلة ، من أعمال القرصنة ، التي كانوا يمارسونها دواماً ، ضد السفن الاسلامية في البحر الأبيض المتوسط ، حتى أصبحوا مصدراً للرعب والفزع ، لكافة السفن الاسلامية الحاملة للتجارة والحجاج ، بين آسيا الصغرى ، وبلاد الشام ، ومصر والحجاز.(٢)

---

(١) مساحة رودس لا تزيد عن ٤٥٣ ميلاً مربعاً ، ويتراوح أكثر جهاتها عرضاً بين عشرين وخمسة وعشرين ميلاً ، وطولها لا يزيد عن ٤٥ ميلاً .

(٢) Stanford J. Shaw, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, Cambridge University Press, 1976, p. 88.

S. L. Stavrianos, The Balkans Since 1453, London 1958, p. 73-74.

لم يجرؤ أحد من سلاطين آل عثمان ، قبل السلطان محمد الفاتح ، على ايفاد حملة لفتح رودس رغم نجاحهم في فتح أراضي دول عريقة قوية ، وفي فتح كل ما أحاط برودس من جزر كبيرة وصغيرة ، على حد سواء ، وبرغم أن رودس ، كانت تظهر الكراهية الواضحة للاسلام والمسلمين ، وتناصب الدولة العثمانية المترامية الأطراف العداء السافر ، وتقف منها موقف المتحدي ، بل وتلحق الأضرار بتجارتها وكرامتها .

والمؤرخون يسهبون في وصف مدى استهتار فرسان القديس يوحنا ، حكام رودس وسادتها ، بالدولة العثمانية ، وأساطيلها البحرية . وكيف أنهم قد جعلوا من جزيرة رودس ، حصنا للمسيحية الأوروبية ، ومقرا دائما لبقايا الحركة الصليبية ، يقومون منه بأعمال القرصنة والارهاب ، ضد السفن الاسلامية ، الناقلة للتجارة والحجاج ، بين شواطىء الدول الاسلامية . ووقفت الدولة العثمانية عاجزة أمام أعمالهم العدوانية ، مما جعلهم يتمادون في السلب والنهب والأسر والقتل ، وأصبحت رودس الجزيرة الصغيرة ، الضئيلة الشأن ، اذا ما قورنت بالأراضي التي اكتسحتها الجيوش العثمانية ، تمثل أكبر خطر يهدد أمن وسلامة الدولة العثمانية ، بل اننا لا نبالغ ، ان أخذنا بتشبيه المؤرخ هانز يواخيم كسلنج ، الذي قال : « لقد اصبحت رودس كالمسدس ، الموجه الى قلب الامبراطورية العثمانية[1] » .

والمؤرخ مرعي بن يوسف المقدس الحنبلي ، صاحب مخطوطة « قلائد العقيان في فضائل آل عثمان » ، الذي عاصر السلطان عثمان الثاني (١٦١٨ ـ ١٦٢٢ م) يقول في مناعة قلعة جزيرة رودس : « وكان حصنها في غاية الاستحكام ويعجز الواصف عنه . »[٢]

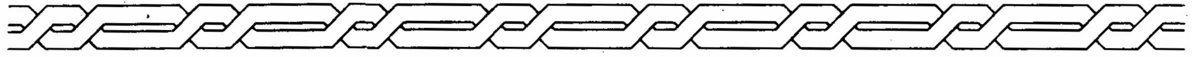
وشيخ الاسلام محمد أبي كرم البكري الصديقي ، صاحب مخطوطة « المنح الرحمانية في الدولة العثمانية » ، وهي من أهم المخطوطات ، المحفوظة في المكتبة الوطنية في باريس ، يؤرخ للدولة العثمانية ، منذ قيامها ، وحتى نهاية عصر عثمان الثاني . وهو حين يتحدث عن جزيرة رودس يقول : « وهي جزيرة في وسط البحر ما بين اسطنبول ومصر بناها الكفار حصنا حصينا واتخذوها ملكاً لمأخذ المسلمين وأتقنوها غاية الاتقان بحيث إنهم أسسوها في تخوم الأرض وعلوا جدرانها .. ولها باب حديد وسلسلة عظيمة في وسط البحر تمنع المراكب من الوصول الى

---

(١) Hans Joachim Kissling, The Muslim World, A Historical Survey, part 3, Netherlands, 1969, p. 30.

راجع : دكتور محمد كمال الدسوقي ـ الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ـ القاهرة ١٩٧٦ ـ ص ٥٦ .

(٢) مخطوطة قلائد العقيان في فضائل آل عثمان لمرعي بن يوسف المقدسي محفوظة بالمكتبة الوطنية في باريس تحت رقم ١٦٢٤ ورقة ١٦ .



الباب وهيأوا أغربة مشحونة بالسلاح والرجال والمدافع »[1] .

والمؤرخون يجمعون على أن قلعة رودس ، كانت قد أصبحت ، قلعة حصينة منيعة ، ولهذا ظلت بعيدة عن المنال ، تمثل خطراً كبيراً على الدولة المملوكية في مصر ، ثم على الدولة العثمانية ، منذ بدأت عصر قوتها واتساعها ، ويصف المؤرخ ـ ستافريانوس ، متانة دفاع رودس فيقول : « ربما كانت رودس حينئذ هي أقوى موقع دفاعي في العالم »[2] .

استقر فرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس عام ١٣٠٩م ، بعد أن طردهم المسلمون من بيت المقدس . وكان من الطبيعي ، أن يحملوا في قلوبهم الكراهية للاسلام والمسلمين . وكان من الطبيعي أيضاً ، أن تحتضنهم الحركة الصليبية في أوروبا ، التي لم تخمد جزوتها ، رغم فشل الحملات الصليبية المتتالية على مصر ، وبلاد الشام . ودعمت المسيحية الصليبية في أوروبا فرسان القديس يوحنا ، دعما لم يعرف له التاريخ نظيراً ، حتى جعلت من جزيرتهم الصغيرة ، مصدر فزع وارهاب ، لأساطيل المسلمين في البحر الأبيض المتوسط . وفشل سلاطين آل عثمان ، كما فشل سلاطين المماليك في مصر ، في ردع فرسان القديس يوحنا ، أو في غزو الجزيرة ، والاستيلاء على قلعتها الشهيرة ، التي أصبحت مضرب الأمثال في القوة والمنعة .[3]

وموضوع العلاقات بين العثمانيين وفرسان القديس يوحنا ، يعد من الموضوعات الهامة التي تناولها المؤرخون باهتمام ، رغم قلة المصادر التي يمكن الاعتماد عليها ، والأخذ عنها . وسنحاول باذن الله في هذه الدراسة ، ـ الاستفادة من مخطوطة فتح رودس ، المحفوظة بالمكتبة الوطنية في باريس ، لالقاء الضوء على بعض النقاط والآراء التي ترد موجزة في كتب التاريخ، أو وردت موجزة في بعض المخطوطات ، التي تتناول تاريخ الدولة العثمانية بصفة عامة .[4]

---

(١) مخطوطة المنح الرحمانية في الدولة العثمانية ـ لشيخ الاسلام محمد أبي أكرم البكري الصديقي سبط آل الحسن ـ محفوظة بالمكتبة الوطنية في باريس ـ تحت رقم ١٦٢١ ورقة ١٤ :

(٢) S. L. Stavrianos, Op. Cit., p. 73.

(٣) تأسست هيئة فرسان الاسبتارية أو فرسان القديس يوحنا في بيت المقدس عام ١٠٧٠ م . ثم نقلت الى قبرص مؤقتا عام ١٢٩٢م ، بعد أن طردهم المسلمون من عكا وبيت المقدس ، ثم انتقلوا الى رودس عام ١٣٠٦م واستقروا بها عام ١٣٠٩ م . وقد ساعدوا بحماس شديد كل الحملات الصليبية المتوجهة الى مصر ، وآسيا الصغرى ، وخاصة الاستيلاء على أزمير ١٣٤٤ ، ونهب الاسكندرية ١٣٦٥ ونيقية ١٣٩٦ .

See: Denys Hay, Europe in the Fourteenth and Fifteenth Centuries, London, 1976, p. 256.

(٤) مخطوطة فتح رودس ـ محفوظة بالمكتبة الوطنية في باريس تحت رقم ١٦٢٢ .

= Bibliathèque Nationale - Paris, Arabe - 1622.



عجز المسلمين عن مقاومتهم :

مخطوطة فتح رودس تذكر أن سبب عجز المسلمين عن التصدي لفتح رودس يرجع الى أن فرسان القديس يوحنا ، المسيطرين على الجزيرة يصعب التغلب عليهم ، لمهارتهم البحرية ، وتفرغهم لأعمال الحرب ، فتقول عنهم : « وهذه الفئة مشهورة بالغلبة على المسلمين وغيرهم في البحر لأنه ليس لهم نظير في المعرفة بأحوال البحر وليس لهم صنعة وزراعة وخيول وتيوس وأغنام وأفراس كثيرة ، حتى يكون الاشتغال بها صارفا لهم عن أحوال البحر والسفينة ، فجميع أوقاتهم وساعاتهم مصروفة في الليل والنهار إلى المرور في البحر ، والمقاتلة مع المسلمين .»(١) .

ويتحدث المؤلف عن موقف الدول الأوروبية المسيحية ، من فرسان القديس يوحنا في رودس ، وأن تعاطفهم معهم عملي ودائم . فالدول المسيحية الأوروبية رغم ما بينها من خلافات ، تبعث بأموال ضخمة الى فرسان رودس ، بصفتهم الواجهة الصلبة ، في وجه الدولة العثمانية الاسلامية ، ولتشجيعهم على مواصلة أعمال العنف والارهاب ، ضد التجار ، والحجاج المسلمين . وعن تلك المعونات يقول المؤلف في المقدمة :

« وهم أي كفرة رودس أغنياء وأقوياء من الغير من جهة المال والخدمة بوجهين أحدهما أنهم صرفوا جميع أوقاتهم وساعاتهم في الليل والنهار في البحر الى المقابلة والمقاتلة مع المؤمنين وغيرهم » .(٢)

ويواصل الحديث عن تعلق ربع سكان الأرض من المسيحيين بهم فيقول : « ولما كان حالهم مشهورا في ربع السكون بين جميع الكفرة جعلوا كافة هذه القلعة معبدا وكعبة ووقفوا لهم دكانين وقرى كثيرة وأرسلوا اليهم في كل سنة بل في كل شهر على ما سمعته ممن كان محبوسا فيه أموالا غير متناهية وأقمشة كثيرة وآلات الحرب »(٣)

ينقصها الغلاف والصفحة الأولى ، ولذا لم يعرف مؤلفها . وهو يتحدث عن نفسه في المخطوطة ، فيقول انه يؤلفها ، في فتح رادوس ، بعد ما أتم في العام السابق تأليف مخطوطة في فتح بلغراد .. وأنه يأمل أن تنال رضا السلطان سليمان خان ، مثلما نالت رسالة سابقة له ، رضا السلطان بايزيد خان . ومخطوطة فتح رودس كتبت بأسلوب واضح وجيد ، بالنسبة لغيرها من المخطوطات العثمانية ، التي كتبت في ذلك العصر ، وتقع في ١٧٤ ورقة من الحجم الكبير ، وخطها في غاية الجمال والوضوح .

(١) مخطوطة فتح رودس ـ المكتبة الوطنية في باريس ـ ورقة ١٦ .

راجع : See: Stanford J. Shaw, Op. Cit., pp. 69-70.

(٢) مخطوطة فتح رودس ـ المكتبة الوطنية في باريس ـ ص ١٧ .

(٣) نفس المرجع السابق

راجع : L. S. Stavrianos, Op. Cit., p. 74 FF.

وصاحب المنح الرحمانية في الدولة العثمانية ، يذكر أيضا تخصص فرسان القديس يوحنا ، وبراعتهم في اعمال القرصنة ، وشدة عدائهم للمسلمين ، وبعد ان يتحدث عن قلعتهم ، ومتانة حصونها ، يوضح انهم قد اتخذوها مقرا لمهاجمة المسلمين ، فقد ارتفعوا بجدرانها ارتفاعا كبيرا ، يمكنهم من مراقبة السفن الاسلامية التي تمر بالبحر قريبا منهم ، وهم حين يرون سفينة من مسافة بعيدة يتأهبون لها ، ويأسرون رجالها ، بعد سلب أموالهم وممتلكاتهم ، وما يحملون معهم . ويذكر ايضاً أن نصارى أوروبا يبعثون اليها بأموال كثيرة لأنهم على حد قوله :

« واتخذوها النصارى معبدا يجهزون أموالهم اليها لتصرف في استحكام بناء صورها وجعلوا من أعلاه الى أسفله ثقوباً وصنعوا فيها المدافع الكثيرة ترمى على من يقصدها من الخارج ... فاذا أحسوا بأحد خرجوا اليه فينهبون ويأخذون ويأسرون ويجمعون الأموال . »(١)

والمؤرخون الغربيون اليوم يقررون تلك الحقيقة ، فالمؤرخ سيدني فيشر ، على سبيل المثال ، يتحدث عن تلك القلعة الروديسية المنيعة ، ويذكر أعمال الارهاب والقرصنة ، التي مارسها فرسان القديس يوحنا ، ضد المسلمين ويقول : « كثيرا ما قطعت رقاب المساجين لعثمانيين ، مما يناقض الاتفاق الذي أبرمه بايزيد الثاني ، الذي كان يعتبر الفرسان قراصنة قتلة . »(٢)

كانت أعمال القرصنة هي المصدر الأول للأموال الوفيرة ، التي تمتع بها فرسان القديس يوحنا . أما المصدر الثاني ، فلم يكن أقل أهمية من المصدر الأول ، لقد ترك الفرسان كل الأعمال المهنية ، والزراعية، وغيرها من الأعمال لكسب العيش ، وتخصصوا جميعا في مهنة واحدة هي القرصنة . مهنة تشفي غليلهم من المسلمين ، فقد كانوا يعتبرون وجودهم في رودس ، امتدادا للحروب الصليبية ، ولوجودهم السابق في بيت المقدس . وهي فضلا عن ذلك تدر عليهم أموالاً طائلة ، وتشجع الحكومات والهيئات المسيحية في أوروبا ، على مداومة امدادهم بالأموال الكثيرة ، والخيرات الوفيرة . وهكذا أصبحت القرصنة في حياتهم كل شيء ، فهي مهنة الجميع ، ومصدر الأموال الوفيرة ، ومجال اثبات مهارتهم وشجاعتهم ، وتفانيهم في ايذاء المسلمين ، والانتقام للدول المسيحية الأوروبية ، التي تلقت الهزائم المريرة المتوالية ، أمام ضربات سلاطين آل عثمان ، منذ قيام

---

(١) مخطوطة المنح الرحمانية في الدولة العثمانية ـ المكتبة الوطنية في باريس ورقة ١٤ .

(٢) Sydney Nettleton Fisher, The Middle East, 1971, p. 220

راجع : اسماعيل سرهنك ـ حقائق الأخبار عن دول البحار ـ الجزء الأول ـ المطبعة الأميرية ـ القاهرة ١٣١٢ هـ ـ ص ٥١٨ .



دولتهم الاسلامية ، على انقاض دولة الـروم ، التي أزالها المسلمون من الوجود .(١)

محاولات محمد الفاتح :

نجح محمد الثاني (١٤٥١ ـ ١٤٨١ م) في فتح القسطنطينية ، وبدأ يفكر في التخلص من البقية الباقية من مظاهـر القـوة الصـليبية الأوروبية ، ورأى أن السكوت على بقاء فرسان القـديس يوحنـا في رودس ، والتغـاضي عن أعمالهم الارهابية ضد المسلمين ، سيكون له أثر سيىء على أمن دولته وسلامة أراضيها . ورأى أن جيوشـه التـي قهـرت القسطنـطينية ، وأن أساطيله التي هزمت مرارا أساطيل البنـدقية ، أقوى دولة بحرية في أوروبا ، ينبغـي لها الا تخشى من مهاجمة رودس .

وحين أنهى محمد الثاني حروبه البحرية مع البندقية ، بنصر حاسم في ١٤٧٨ ، بدأ يخطط للبحرية العثمانية تجاه هدفين كبيرين الأول فتح رودس ، والثاني هو احتلال ايطـاليا ، وكلاهما هدف ذو صبغة دينية واضحة فرودس هي مركز عملاء الصليبية المتطرفة في أوروبا ، وايطـاليا هي مركز البابوية ، المتآمرة مع هؤلاء العملاء ، ضد التجار والحجاج المسلمين ، وضـد الدولـة العثمانية ، والأمة الاسـلامية ، بصفـة عامـة . وأقسم السلطان محمد الفاتح ليقدمـن الطعـام بيده الى حصانه ، وهو واقف على مذبح كنيسة القديس بطرس في روما ، بعد أن يدك صرح البابوية .(٢)

عين كديك أحمد باشا سنجقا على ميناء ومنطقـة أقلـونيا ، في ألبـانيا ، وأصبـح قائـداً للأسطول العثماني في بحر ايجـه ، وعهـد اليه السلطان بمهمـة اعـداد الحملتـين ضد رودس وايطاليا ، منتهزا فرصة الخلافات التي نشبـت بين ميلان ، ونابلي ، والبندقية . وبدأ الاسطول العثمانـي تحـركه بالاسـتيلاء على جزيرتـي كيفالونيا وزانتا اليونانيتين ، وكان ذلك ايذانـاً ببدء تنفيذ الخطة التي وضعها السلطان محمـد الثاني ، ثم سار مسيح باشا الى رودس ، وبدأ حصارها يوم ٢٣ مايو ١٤٨٠ ، ولـكن فرسـان القديس يوحنا صمدوا للحصار .(٣)

في تلك الأثناء كانت مجموعة أخـرى من الأسطول بقيادة كديك باشا قد احتلت الميناء الايطالي أو ترانتو يوم ١١ أغسـطس ١٤٨٠ . وأحس البابا بالخطر المحدق به ، وأعد العـدة للهرب شمالا الى فرنسـا ، ومعـه أغلب سكان

---

(١) See: H. I. Koenigsberger and I. L. Mosse, Eurpe in the sixteenth century, London, 1976, p. 192 ff.

(٢) د . عبد العزيز محمد الشناوي ـ أوربا في مطلع العصور الحديثة ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٩ ـ ص ٦٦٦ .

(٣) Sydney Nettleton Fisher, Op. Cit., p. 197.

اسماعيل سرهنك ـ المرجع السابق ـ ص ٥١٨ .

روما . وأعلنت الدعوة لحرب صليبية جديدة ، وتدفقت المعونات على البابا ، من مختلف الولايات الايطالية ، ومن فرنسا وهنغاريا . وعاد كديك أحمد باشا في شتاء عام ١٤٨١ ، الى ألبانيا ، ليعد مددا لقوات العثمانيين المحاصرة لرودس ، والمحتلة لمدينة أوترانتو الايطالية ، ولكن السلطان محمد الثاني لقى ربه يوم ٣ مايو ١٤٨١ ، واعتلى العرش ابنه بايزيد الثاني ، وبقيت القوات العثمانية تنتظر المدد ، وطال الانتظار ، فقد انشغل عنها بايزيد بخلافه مع أخيه جم ومناصريه .

ومخطوطة فتح رودس تذكر محاولة قوات مسيح باشا فتح رودس وتقول : « والمشهور أن مسيح باشا توجه الى ردوس بأمر المرحوم سلطان بايزيد خان عليه الرحمة والغفران ولم يجد ظفراً اليه من كل الوجوه ورجع قهقرى الى القسطنطينية بالمغلوبية والضعف »[١] .

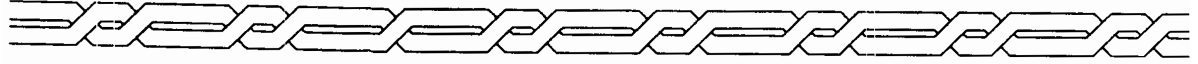
وهكذا وقع مؤلفها في الخطأ فنسب الحملة ، التي قادها مسيح باشا ، الى عصر السلطان بايزيد خان . والحقيقة التاريخية ، الثابتة في كل المخطوطات والمؤلفات المعنية ، ان حملة مسيح باشا ضد رودس ، كانت في عصر محمد الفاتح ، في عام ١٤٨٠م ، الموافق ٨٨٥هـ ، وأن محمد الثاني مات ، قبل أن يتمم ما بدأه ، وأن موته ونشوب الخلاف بين بايزيد الثاني وجم ، هو الذي أنهى الحصار على رودس ، وأنهى الحملة على ايطاليا ، وتسبب في استغلال فرسان القديس يوحنا ، والبابا ، للموقف بأسرهم لجم ، ومحاولة استغلاله ضد بايزيد الثاني ، وضد المسلمين بصفة عامة ، وفي صالح الحركة الصليبية ، التي لم تخمد جذوتها .[٢]

وينبغي لنا هنا أن نقرر أن فشل تلك الحملة ، لم يكن عن اهمال من القوات العثمانية ، أو عن ضعف في أسطولها .لقد كانت القوات العثمانية في الواقع في عهد محمد الثاني ، وضرب المثل في القوة والتسليح . وكان جند الاسلام في القوات العثمانية يتمتعون بما لم تعرفه جيوش أوروبا مجتمعة . لقد كانوا يقومون بفتوح اسلامية ، أعادت الى الأذهان ، ذكريات البطولة والكفاح ، التي ذخر بها تاريخ الاسلام والمسلمين .[٣] واعتبر الأوروبيون كل نصر عسكري للدولة العثمانية نصراً اسلامياً ، واعتبروا كل هزيمة تلحق بأية دولة أوروبية ،

(١) مخطوطة فتح رودس ـ المكتبة الوطنية في باريس ـ ورقة ١٧ .

(٢) V. J. Parry and others, A History of the Ottoman Empire to 1730, Cambridge, 1976, p. 45.

(٣) دخل الكثيرون من قواد دول البلقان في الاسلام وحسن اسلامهم ، وجاهدوا في سبيل الله ، وقدموا صورا رائعة من البطولة . وكان من هؤلاء المسيحيين الذن دخلوا في الاسلام مسيح باشا قائد الحملة الاولى ضد رودس ، وكان يدعى مشطس ، وأصله من أسرة قياصرة الدولة البيزنطية ، وقد اعتنق الاسلام ، بعد فتح القسطنطينية ، وقدم للدولة خدمات جليلة . (اسماعيل سرهنك ـ المرجع السابق ـ ص ٥١٨ هامش ١) .



هزيمة للمسيحية . لقد سقطت عكا آخر معاقل المسيحية في ١٨ مايو ١٢٩١ في يد السلطان خليل بن قلاوون ، فانتهت الامارات المسيحية في الأرض المقدسة . ولكن سقوط عكا لم ينه الروح الصليبية المسيحية . بل اننا لا نبالغ ان قلنا ان الروح ـ الصليبية في أوروبا ، خلال القرون ، التي تلت سقوط عكا ، لم تكن تقل بأي حال ، عن الروح الصليبية ، قبل ذلك ، وان اختلفت درجتها من فترة الى فترة ومن دولة الى دولة ، تبعا لاختلاف الظروف . لقد بقيت الروح الصليبية في أوروبا ، وان اختلفت مظاهرها ، واختلفت وسائلها طبقا لظروف العصر الجديد . ولهذا فان فتوحات محمد الثاني ، قد اعتبرت كارثة حلت بالحركة الصليبية في أوروبا . ولا نعجب حين نرى بعض المؤرخين الأوروبيين يقرر أن أوروبا تنفست الصعداء حين علمت بنبأ وفاته ، واعتقدت أنها انقذت من خطر شديد .(١)

حين توفي السلطان محمد الثاني ، كانت حروبه وأعماله قد جعلت من الدولة العثمانية ، امبراطورية عظيمة ، انتقلت عاصمتها الى القسطنطينية ، عاصمة الدولة البيزنطية ، التي انتهى وجودها من على خريطة اوروبا ، وزالت آخر مواقعها ، مع سقوط القسطنطينية ، التي أعاد محمد الفاتح تعميرها ، حتى أصبحت من أجمل مدن أوروبا . ونجح محمد الثاني ، بعد ذلك الفتح العظيم ، في توطيد ملكه في شبه جزيرة الأناضول ، فقضى على البقية الباقية من النفوذ المسيحي ، حتى أصبحت المنطقة اسلامية برمتها ، وارتفع صوت المؤذن في كثير من البقاع ، لأول مرة في التاريخ .(٢)

لقد بلغت حدود امبراطوريته العظيمة ، حتى أعالي الفرات ، وتاخمت دولة الفرس ، ودولة المماليك في بلاد الشام . لقد أخضع محمد الثاني كل شبه جزيرة البلقان لسيطرته ،ووصل في فتوحاته في أوروبا الى نهر الدانوب ، والى حدود لم يسبق لأحد من خلفائه أن وصل اليها . وكان على من يخلفه في الحكم مسؤولية ضخمة ، لصيانة هذه الأملاك الواسعة، وحمايتها ، ولمواصلة ما كان قد بدأ من حرب ، ضد البابا ، وضد قراصنة رودس ، وكلاهما خطر صليبي كبير .

الخلافات الداخلية :

مات محمد الفاتح ، وحق لأوروبا الصليبية أن تتنفس الصعداء ، فقد انشغلت الدولة

---

(١) F. Babinger, Mehmed 11, dar Eroberer and seine Zeit, Muenchen, 1953, S. 266

ف . بابنجر ـ محمد الثاني الفاتح وعصره ـ ميونيخ ١٩٥٣ ـ ص ٢٦٦ .

راجع : محمد فريد بك ـ تاريخ الدولة العلية العثمانية القاهرة ـ ١٨٩٣ ـ ص ٣٤ وما بعدها .

(٢) See: E. Brockman, The Two Sieges of Rhodes, 1480-1522, London, 1959, p. 22 ff.



العثمانية عن البابا ، وعن قراصنة رودس ، شغلها الخلاف الذي شب بين بايزيد وجم ، ولدي محمد الثاني ، اللذين تركهما من بعده ، حين توفي عندمالتب في مواجهة القسطنطينية .

كان بايزيد في حياة والده ، قد عين حاكما لولاية الروم ، وتشمل مناطق واسعة ، حول أمازيا . وكان اخوه الأصغر جم قد عين حاكماً على ولاية قرمان ، ويجلس في عاصمتها قونية . وأما زيا وقونية ، كانتا في الأناضول ، وتبعد كل منهما عن استامبول العاصمة ، بمسافة تعادل بعد الأخرى عنها .

عقب الوفاة بعث محمد فرماني باشا ، الصدر الأعظم ، في استدعاء ولديه . وكان يميل الى أن يصبح جم خلفا لوالده ، رغم أن جم هو الأصغر سنا. وكتم الصدر الأعظم خبر الوفاة عن الناس ، انتظاراً لوصول جم . وتسرب خبر الوفاة ، وأدرك الصدر الأعظم أن الانكشارية تصر على جعل بايزيد سلطاناً ، خلفاً لوالده ، ولا ترضى بتوليه جم . ازاء هذا الموقف ، وخوفا من تولية بايزيد ، أصدر الصدر الأعظم أوامره ، بعزل فرق الانكشارية ، التي كانت لا تزال حول مالتب ، حيث توفي السلطان ، لمنعها من عبور البوسفور الى استامبول . وأصدر الأوامر بالفعل ، بسد جميع المناطق التي تصلح لرسو السفن ، حول استامبول . وفشلت خطة الصدر الأعظم ، فقد ثارت الانكشارية ، ثورة كبيرة ، وتقدمت من مالتب الى ميناء سكوتاري ، ومنها دبرت السفن اللازمة وعبرت البوسفور ، الى استامبول ، ونزلت رغم ما أعد لمنعها من الوسائل .(١)

ونجح الانكشارية في نفس الوقت ، في القبض على الرسل ، المبعوثين لاخطار جم بوفاة والده . وهكذا أصبح الموقف في العاصمة في يد الانكشارية ، فرفعوا الى العرش أحد ابناء بايزيد ، وأرسلوا في استعجال وصول بايزيد . ووصل بايزيد الى استامبول يوم ٢٠ مايو ١٤٨١ ، ونادى به الانكشارية سلطاناً باسم بايزيد الثاني . وكان بايزيد يرى أنه أحق من أخيه بالعرش ، لأنه أكبر منه سناً ، ولأن أمه هي السلطانة الوالدة ، أما جم فوالدته مستولدة صربية . حدث كل هذا ، على مسرح الأحداث في العاصمة العثمانية ، وجيوش الدولة في ميدان الحرب ، تنتظر المدد ، لمواصلة القتال ضد البابا في ايطاليا ، وضد فرسان القديس يوحنا ، في جزيرة رودس .

لم يقف الأمر عند هذا الحد ، فان جم لم يستسلم ، ويرضى بالأمر الواقع ، بل صمم . على انتزاع العرش من أخيه . وتوجه جم الى

(١) Stanford J. Shaw, op. cit., p. 71.

S. Fisher, Civil Strife in the Ottoman Empire, 1481-1503, Journal of Modern History, 13, 1941. p. 448 ff.

بروسة ، وجمع حوله عددا كبيرا من أنصاره ، وأغلبهم من التركمان وأهالي الأناضول ، الكارهين للانكشارية ، المؤيدة للسلطان بايزيد ، والمدافعة عنه . وأعلن جم نفسه سلطانا يوم ٢٨ مايو ١٤٨١ ، وأصبح للدولة سلطانان ، السلطان بايزيد الثاني في استامبول ، والسلطان جم في بروسة في آسيا الصغرى . واقترح السلطان جم على أخيه السلطان بايزيد الثاني ، تقسيم الدولة العثمانية الى قسمين ، قسم أوروبي يحكمه بايزيد ، وقسم آسيوي يحكمه جم ، ورفض بايزيد الثاني طلب أخيه ، واندلعت الحرب بين الشقيقين وأنصارهما ، وانقسمت الدولة على نفسها ، وجيوشها في ميادين القتال ، ضد الصليبية الأوروبية في حيرة من أمرها .(١)

ترك بايزيد الثاني أمر القتال في الخارج ، وبدأ يعد للقضاء على أخيه ، واستعان في ذلك بكديك باشا قائد الحملة على ايطاليا ، الذي تصادف وجوده في الأناضول ، لجمع المدد اللازم للجند العثمانية في ساحة القتال . وترك كديك أحمد باشا موضوعه الأصلي الذي رجع من أجله الى أرض الوطن واشترك الى جانب بايزيد الثاني ، خاصة وأنه كان يتمتع بمكانة طيبة عند الانكشارية ، الذين زاد نفوذهم بعد تأييدهم لتولية بايزيد الثاني ، ونجاحهم في ذلك وكان بايزيد الثاني ، قد عين رئيسيهم اسحق باشا ، صدراً أعظم ، بعد أن قتلت الانكشارية الصدر الأعظم ، محمد فرماني باشا الموالي لجم .(٢)

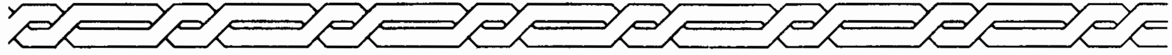
التقت قوات بايزيد الثاني بالقوات الموالية لجم ، ودارت معركة عنيفة انتهت بهزيمة جم ، عند ينى شهر ، قرب بروسة ، في ٢٠ يونيو ١٤٨١ ، وفر جم ومن بقي من أعوانه ، عبر هضاب الأناضول الى قونية ، التي حكمها لسنوات عديدة ، أثناء حياة والده . ولكن أنصاره في قونية خشوا من مساعدته ، ووجدوا أنهم لا قبل لهم بمواجهة الانكشارية ، واضطر جم وبعض أفراد أسرته وبعض أعوانه الى اللجوء الى الشام ، ومنها الى مصر . ورحب به السلطان المملوكي الأشرف قايتباي (١٤٦٨ ـ ١٤٩٦ م) ، وأعطاه ما يلزمه من أموال .(٣)

---

(١) V. J. Parry, op. cit., p. 56
راجع : اسماعيل سرهنك ـ المرجع السابق ـ ص ٥٢٠ .
دكتور أحمد فؤاد متولي ـ الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له ـ القاهرة ١٩٧٦ ـ ص ٥١ .

(٢) Stanford J. Shaw, op. cit., p. 71.
راجع : دكتور محمد مصطفى زيادة ـ نهاية السلاطين المماليك في مصر ـ المجلة التاريخية المصرية ـ المجلد الرابع ـ العدد الأول ـ مايو ١٩٥١ ـ ص ١٩٧ ـ ٢٢٥ .

(٣) د . محمد مصطفى زيادة ـ المرجع السابق ـ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ .
د . أحمد فؤاد متولي ـ المرجع السابق ـ ص ٥١ ـ ٥٢ .



ويذكر صاحب المنح الرحمانية في الدولة العثمانية قصة ذلك الصراع ويقول : « قاتله أخوه السلطان جم فبرز السلطان بايزيد لقتاله وتقاتلا فانهزم السلطان جم وفر الى مصر وحج زمن السلطان قايتباي المحمودي وعاد فأكرمه اكراما عظيما . »[1]

وبعد عوده جم وأسرته من الأراضي المقدسة ، قرر محاولة استعادة العرش مرة أخرى ، وانتزاعه من أخيه بايزيد . زوده قايتباي بالأموال ، وأغراه بالاتصال بالسلطان بايزيد ، والتفاهم معه ، بشأن تقسيم الدولة العثمانية فيما بينهما ، أو بشأن مشاركة بايزيد في الحكم دون تقسيم للدولة . ولكن بايزيد رفض الاستماع الى تلك المقترحات ، واعتبرها تحطيما للدولة . ووعد أخاه جم بالعفو عنه ، ان هو عاد الى وطنه كما وعده بأن يخصص له ولأسرته ، راتبا سنويا كبيرا .

رفض جم قبول عرض بايزيد ، وقرر العودة الى آسيا الصغرى ، وتوقع من أنصاره عونا كبيرا وغادر جم القاهرة ، وترك بها أسرته ، وجمع أنصاره في حلب ، ثم تقدم ودخل آسيا الصغرى يوم ١٩ مايو ١٤٨١ . ومنها تقدم بعد ان اجتمع حوله عدد كبير من أهالي آسيا الصغرى ، الذين أحبوه يوم كان حاكما عليهم . وتقدمت جيوش بايزيد الثاني لملاقاة جم مرة أخرى ، ولم تستمر المعركة طويلا ، وانتهت بهزيمة جم ، قرب أنقره في ٨ يونيو ١٤٨٢ . واضطر جم للفرار الى فرسان القديس يوحنا ، بجزيرة رودس ، بصفتهم أعداء الدولة العثمانية ، المتوجسين من بايزيد الثاني خيفة ، والمتوقعين منه أن يواصل حملته ضدهم ، التي بدأها والده قبيل وفاته ، والتي توقفت بسبب وفاة محمد الفاتح ، وعدم وصول الامدادات اللازمة لاستمرارها . وصاحب المنح الرحمانية يذكر ذلك في مرارة ويقول : « ثم عاد السلطان جم الى ورسق وجمع طائفة من الغزاة ونازع أخاه على الملك فقاتله بايزيد فانكسر السلطان جم ثانية وفر الى بلاد النصارى . »[2]

قراصنة رودس والأمير جم :

فرح فرسان القديس يوحنا ، بمقدم جم الى جزيرتهم ، وأحسن رئيسهم الكبير « دويوسون » استقباله ، وحاولوا ابتزاز الأموال من زوجته ، وأسرته ، موضحين له أهميتهم ، في

---

(١) مخطوطة المنح الرحمانية ـ المكتبة الوطنية في باريس ـ ص ٧ .
راجع : محمد فريد بك ـ المرجع السابق ـ ص ٤٧ .
اسماعيل سرهنك ـ المرجع السابق ـ ص ٥٢٠ ـ ٥٢١ .

(٢) مخطوطة المنح الرحمانية في الدولة العثمانية ـ المكتبة الوطنية في باريس ـ ورقة ٧ .

أي صراع ، بينه وبين بايزيد الثاني . وفي نفس الوقت ، بدأوا اتصالاتهم بالسلطان بايزيد ، فوجدوا لديه استعدادا للتفاهم معهم .

واستغل فرسان القديس يوحنا الموقف لصالحهم ، فوضعوا جم تحت حراستهم ، وأرسلوه في أول سبتمبر ١٤٨٢ ، بحراً الى قلاعهم في فرنسا . ودارت المفاوضات بينهم وبين بايزيد الثاني ، وتعهد فرسان القديس يوحنا ، بالمحافظة على جم ، وعدم تمكينه من العودة للمطالبة بالعرش ، نظير تعهد بايزيد الثاني بعدم اتخاذ أي اجراء حربي ضد رودس . كما تعهد السلطان في ديسمبر ١٤٨٢ ، بدفع ٤٥ ألف دوكات ذهبية سنويا للفرسان ، ثمناً لبقاء جم في حراستهم سجيناً .(١)

تفاهم فرسان القديس يوحنا مع بقية المسيحية ، المهتمة بسلامة جم ، كوسيلة ناجحة للضغط على السلطان بايزيد الثاني ، وتهديده الدائم حتى لا يفكر في شن أي هجوم على جزيرة رودس ، أو على مقر البابوية في روما ، كما فعل والده في العام الأخير من حياته . وتم الاتفاق فيما بينهم على تسليم جم للبابا أنوسنت الثامن ، الذي كان يعد بالفعل لحملة صليبية جديدة انتقاما من المسلمين ، الذين توغلوا بفتوحاتهم في الأراضي المسيحية ، وقضوا على وجود الدولة البيزنطية وأبحر جم من ميناء طولون ، في ٢١ فبراير ١٤٨٩ ودخل روما في ١٠ مارس ١٤٨٩ ، واستقبل استقبالاً رسمياً ، ولكن ذلك لم يمنع من وضع الحراسة المحكمة عليه ، حتى يظل أسيراً للبابا في الفاتيكان . وتوفي البابا أنوسنت الثامن ، في ٢٦ يوليو ١٤٩٢ ، وخلفه البابا الاسكندر السادس ، الذي واصل الاحتفاظ بجم ، وواصل قبض الأجر من السلطان بايزيد الثاني ، نظير سجنه لجم ومنعه من الهرب .(٢)

على أن خطة البابوية لاستغلال جم في ايفاد حملة صليبية ، لم يكتب لها النجاح ، ولم تنفذ رغم المحافظة الشديدة على جم . فقد ظهر على مسرح الأحداث منافس جديد ، بدأ هو الآخر يتاجر باسم الأمير جم ، وكان المنافس الجديد هو شارل الثامن ملك فرنسا .

أعلن شارل الثامن بصفته ملكا لفرنسا ، وراعيا لراية الحركة الصليبية ، التي حملها أجداده ضد المسلمين لبضعة قرون ، أنه سيعيد أمجاد الصليبيين . وبدأ الملك الفرنسي في الاعداد لمسيرة صليبية ، يسير على رأسها الى استامبول ، ويصحبه فيها الأمير جم ، على أن يساهم فيها من يشاء من الملوك ، والأمراء ، وفي مقدمتهم البابا ، وفرسان القديس يوحنا ، وملوك

(١) محمد فريد بك ـ المرجع السابق ـ ص ٤٧ .

د . احمد فؤاد متولي ـ المرجع السابق ـ ص ٣ ٥.

(٢) Stanford J. Shaw, op. cit., pp. 71-72.

المجر ، وبولندا ، واسكتلندا .(١)

وتقدم شارل الثامن بجيش ضخم ، عبر الألب ، لغزو الأراضي الايطالية . ودخلت القوات الفرنسية روما ، واحتلتها ، في ٢١ ديسمبر ١٤٩٤ . وأعلن شارل الثامن أنه سيستولي على مملكة نابلي ، في جنوب شبه الجزيرة الايطالية ، ومنها سيواصل الزحف الى استامبول ، للقضاء على بايزيد الثاني ، وأنه سيصطحب معه الأمير جم .

وسلم البابا اسكندر السادس ، الأمير جم لشارل الثامن مرغماً ، فقد كان يريد الاحتفاظ به ، ليستمر في استنزاف الأموال من بايزيد الثاني ، ثمنا للمحافظة عليه من الهرب والعودة الى استامبول . كما أنه وهو المعروف بسوء الخلق ، كان يمني نفسه بمبلغ كبير من المال ، يتقاضاه من بايزيد ، ان هو قام بقتل جم ، بدلاً من تسليمه لشارل الثامن .(٢)

تسلم شارل الثامن الأمير جم ، من البابا ، يوم ٢٧ يناير ١٤٩٥ . وفي اليوم التالي ، غادر شارل الثامن روما ، ومعه جم . ودخل الجيش الفرنسي نابلي ، في ٢٢ فبراير ١٤٩٥ . وفي يوم ٢٥ فبراير ١٤٩٥ ، كانت المفاجأة للفرنسيين أن جم قد لقى ربه ، في مدينة نابلي ، فلم يغادر الأراضي الايطالية ، ولم يتاجر باسمه في حملة صليبية جديدة .

وهكذا فشلت خطة فرسان القديس يوحنا ، والبابا وبقية القوى الصليبية في أوروبا ، الا أن هذا الموقف ، الذي أحسنوا استغلاله ، قد حد من تصرفات بايزيد الثاني ، الذي لم ينته خوفه ، من عودة جم ، الا بعد وفاته ، بعد أربعة عشر عاماً من الخلاف معه . وبطبيعة الحال لم يفكر بايزيد ، خلال تلك الأعوام ، في الاحتكاك بفرسان القديس يوحنا ، أو البابا ، بل انه آثر أن يعطيهم المبلغ السنوي الذي اتفق عليه ، وكأن الفدية يدفعها السلطان العثماني مجبراً ، والا لحق به الأذى(٣) .

وقد اختلفت الروايات التي ذكرها المؤرخون عن موت جم . فالبعض يجزم أن

---

(١) V. J. Perry, op. cit., p. 57.

(٢) Sydney Nettleton Fisher, op. cit., p. 802.

محمد فريد بك ـ المرجع السابق ـ ص ٤٨ .

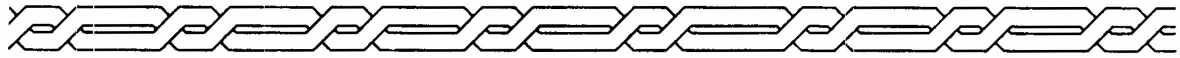
د. أحمد فؤاد متولي ـ المرجع السابق ـ ص ٥٤ .

(٣) (بعد أن صار جم في حوزة البابا أنوسنت الثامن ، تم الاتفاق بين البابا وبايزيد الثاني ، في نوفمبر ١٤٩٠ ، على أن يدفع بايزيد الخمسة وعشرين ألف دوكات الى البابا نفسه ، بدلا من دفعها الى فرسان القديس يوحنا .) .

V. J. Parry, op. cit., p. 57

اسماعيل سرهنك ـ المرجع السابق ـ ص ٥٢١ .

محمد مصطفى زيادة ـ المرجع السابق ـ ص ٢٠٤ .



البابا اسكندر السادس ، قد سلم للملك الفرنسي مرغما ، وأنه قد دبر من دس السم له ، طمعا في مبلغ كبير من المال ، يدفعه له بايزيد ، ويؤيد هذا الرأي أن البابا كان رجلاً يعيش في جو مليء بالاغتيال والمؤامرات . والبعض يستبعد حدوث ذلك من البابا ، في تلك الفترة التي كان شارل الثامن ، قد اعلن فيها عن حملة صليبية ، يتقدمها البابا وجم .

ويروى شيخ الاسلام محمد أبي أكرم البكري الصديقي في مخطوطته قصة أخرى لمقتل جم فيقول : « فأرسل السلطان أحد عبيده في صورة حلاق مجهول ، فدخل على السلطان جم وتأنس به وسأله عن صنعته فقال حلاق فاستخدمه وأمره أن يحلق له رأسه فحلقها بموس مسموم وهرب في الحال فسرى السم في رأسه والى جميع بدنه فمات الى رحمة الله تعالى. »[١]

الانشغال عن رودس :

وبعد موت جم انشغل بايزيد الثاني بحروبه في ميادين أخرى بعيداً عن رودس الى أن تنازل عن العرش ، لابنه سليم الأول ، في **٢٥ ابريل ١٥١٢** . وانشغل سليم الأول بفتوحاته العظيمة ، وضمه للعراق ، وبلاد الشام ، ومصر ، والحجاز ، وفي تدعيم أركان الدولة ، التي أضحت أكبر وأعظم امبراطورية في عصرها . ولم تمهله الأحداث ، فانه حين فكر في غزو رودس ، للتخلص من تلك الشوكة في جانب امبراطوريته العظيمة ، عاجلته المنية في **٢١ سبتمبر ١٥٢٠**[٢] .

والواقع أن فرسان القديس يوحنا ، قد أدركوا منذ حملة مسيح باشا ، أن العثمانيين سيجددون محاولتهم ضد رودس ، حين تتهيأ الفرصة لهم واستغلوا مهادنة بايزيد الثاني لهم ، واتفاقه معهم ، نظير حبسهم لجم ومنعه من الهرب والعودة للمطالبة بالعرش . استغلوا ذلك الاتفاق ، وأخذوا منه الأموال ، واستغلوها ، مع ما كان يأتي اليهم دواما ، من مختلف أنحاء أوروبا ، وزادوا في متانة حصونهم ، وتسليحها ، حتى أصبحت قلعتهم المشهورة ، في غاية القوة [٣] .

واستغلوا في الفترة التالية ، انشغال السلطان سليم الأول عنهم ، بفتوحاته وتوسعاته العظيمة ، وزادوا في تحصين قلعتهم ، ثم زادوا في عهده من نشاطهم البحري ، ضد السفن

---

(١) المنح الرحمانية في الدولة العثمانية ـ المكتبة الوطنية في باريس ـ ورقة ٧ .

(٢) Sydney Nettleton Fisher, op. cit., p. 206.
V. J. Parry, op. cit., pp. 77-78.

محمد فريد بك ـ المرجع السابق ـ ص ٥٥ .

(٣) See: Philip K. Hitti, History of the Arabs, 10th ed, London, 1974, p. 712 ff.

الاسلامية ، التي زاد عددها ، بعد ضم الشام ، ومصر ، والحجاز ، للدولة العثمانية ، والواقع أن السنوات التي أعقبت عام ١٥١٧ ، قد شهدت منهم أعمال قرصنة وسلب ، ونهب ، وأسر ، وقتل ، لم يسبق لها مثيل . وأصبح الحجاج الى مكة المكرمة مهددين ، هم والتجار المسلمين ، في كل لحظة ، يتوقعون هجوما من فرسان القديس يوحنا ، ينتهي بهم الى القتل ، أو الى سجون الجزيرة .

ومخطوطة فتح رودس تقدم لنا صورة لما بذلوه من جهد في تحصين القلعة ، التي لم تعرف تلك العصور نظيراً لها في ضخامتها ، وحصانتها ، وتنوع وكثرة وسائل الدفاع عنها ، مع تكدس الأسلحة المختلفة بها . والفصل الأول من المخطوطة قد خصص لوصف القلعة . ويذكر أن هذه القلعة قد بنيت قبل أكثر من ألفي عام ، وفي قول آخر ، قبل مولد عيسى عليه السلام بثلثمائة عام ، فهي قلعة قديمة عريقة تجدد بناؤها مرات ومرات ، وفي كل مرة يزاد في طولها وفي عرض حوائطها ، حتى أصبحت ، بفضل ما تدفق عليها من أموال المسيحيين الصليبيين في أوروبا ، أضخم قلعة في عصرها .

واستمر الفرسان يدعمون وسائل الدفاع عنها بمختلف الوسائل ، وحفروا حول سورها من جهة البحر ، خندقا عميقا ، وفي بعض الأجزاء ، خندقين عميقين ، لقد استغلوا الفرصة والأموال الكثيرة المتيسرة لهم فحصنوها ، وجعلوا فيها منافذ يراقبون منها البحر . وكلما رأوا سفينة أو عددا من السفن خرجوا اليها وهاجموها . كما أنهم كانوا يخرجون الى عرض البحر بحثا عن ضحاياهم . وكلما وجدوا سفينة من سفن المسلمين ، سواء كانت تحمل بضائعا أو حجاجا من حجاج البحر ، هاجموها ، وسلبوا البضائع ،والأموال ، وأسروا الأفراد .(١)

والأسير المسلم الذي يقع في أيديهم لا يتركونه ، فان كان غنياً في بلده ، فعليه لكي يطلق سراحه ، أن يفتدي نفسه بمبلغ كبير من المال ، يدبره له أهله . أما ان كان المسلم الأسير فقيراً ، فمصيره كان السجن الدائم ، والعذاب المستمر . وكان الأسرى يلقون أسوأ معاملة ، ويكلفون في النهار بأشق الأعمال . وفي الليل يلقون به « في المحبس الذي لا يكون المحبوس فيه قادراً على الاستلقاء والاتكاء لكون جميع أعضائه من الرأس الى القدم مقيداً بقيود متخذة من الحديد كالأغلال والسلاسل » .(٢)

---

(١) Sydney Nettleton Fisher, op. cit., p. 220 ff.

(٢) مخطوطة فتح رودس ـ المكتبة الوطنية في باريس ـ ورقة ٧ .

اهتمام سليمان القانوني بفتح رودس :

تولى سليمان القانوني الحكم ، بعد وفاة أبيه ، السلطان سليم الأول ، في ٢١ سبتمبر ١٥٢٠ وورث عن أبيه ملكا واسعا ، ضم اليه والده العراق ، والشام ، ومصر ، والحجاز . وكان على سليمان أن يبذل أقصى الجهد من أجل السيطرة على تلك الامبراطورية الواسعة ، كما عول على تقويتها ، وزيادة أملاكها . ورأى بثاقب نظره أن دولته القوية ، تعاني من نقطتي ضعف ، هما بلغراد في شمال حدود الدولة ، بقلعتها القوية في يد الهنغاريين ، وجزيرة رودس في الجنوب ، بعد أن زادت أعمال القرصنة لفرسان القديس يوحنا ، ضد السفن الاسلامية العثمانية ، التي تزايد عددها بعد ضم الشام ، ومصر ، والحجاز للدولة العثمانية . ومع تزايد عدد السفن الاسلامية ، في شرقي البحر الأبيض المتوسط ، تزايدت أعمال العنف والارهاب ضد المسلمين ، وتزايد عدد الأسرى المسلمين ، في يد القرصان المسيحيين فرسان القديس يوحنا ، وأصبح الوضع على ما سبق لنا وصفه لا يمكن السكوت عليه .(١)

والمؤرخ ستانفورد شو يصف ذلك الموقف عند تولي سليمان الحكم فيقول : « كانت رودس هي المشكلة الأخرى ، التي شغلت فكر سليمان ، فهي مركز مسيحي متقدم وخطير ، يقف وحيد في بحر كله ضار عثمانياً » . ثم يواصل وصف أعمال القرصنة فيقول : « وقرصان رودس كانوا يأسرون أعدادا كبيرة من السفن ، التي تحمل الحبوب والذهب من الولايات العربية الجديدة ، والتي تحمل الحجاج من الأماكن المقدسة واليها وكان هذا يمثل تهديدا لسلطة السلطان ومركزه وماليته »(٢)

وابن زنبل الرمال صاحب سيرة الجراكسة وما وقع بينهم مع السلطان سليم يتحدث أيضا عن فرسان القديس يوحنا وأعمالهم الظالمة ضد المسلمين ويقول : « فانه كان قوي بأسهم وفرحوا بموت السلطان سليم وطمعوا في أخذ بلاد المسلمين وظنوا بأن ولده سليمان لا قدرة له على الحرب ، فأظهر الله منه العدل والانصاف فخرج بنفسه .»(٣)

وبدأ سليمان أعماله الحربية العظيمة ، في أغسطس ١٥٢١ ، بالاستيلاء على بلغراد ، في حملة سريعة ، لم تستمر أكثر من ثلاثة أسابيع . وفتح سقوط بلغراد ، الطريق أمام سليمان الى بقية

---

(١) J. A. Marriot, The Eastern Question, an Historical Study in European Diplomacy 4th ed, London, 1969, p. 87.

(٢) Stanford Shaw, op. cit., p. 88.

(٣) مخطوطة سيرة الجراكسة وما وقع بينهم مع السلطان سليم بن بايزيد بن السلطان محمد فاتح القسطنطينية من الحروب والقتال ـ محمد الزنبلي الرمال توفي(٩٦٠ هـ ـ ١٥٥٢م) . محفوظة بالمكتبة الوطنية في باريس تحت رقم ٥٨١٨ ـ ص ١٢٤.
Bibliothèque Nationale - Paris - Arabe

أراضي المجر . ولــكن سليمان لم يستمــر في تقدمــه ، ضد أعدائــه وآثــر أن يكون هجومـه القــادم ، ضد جزيرة رودس . ومخطوطـة فتـح رودس تشير في مقدمتهـا ، الى أن السلطـان سليمان ، لم يطـق صبـرا فأعـد العـدة لفتـح رودس ، ولم يكن قد مر عام على فتحه لبلغراد . وتعلل المخطوطة ذلك ، بأن فرسان رودس ، قد اشتهـروا بالعـداوة الشـديدة للمؤمنــين ، وأن أعمالهم لا يمكن السكوت عليها ، وأن فرسـان القديس يوحنا ، كانوا دائماً على درجة كبيرة من القوة ، مما جعل السلاطين السابقين يعجـزون عن فتحها .[1]

ازاء كل تلك الظروف لم يتردد السلطان سليمان في توجيه حملة الى رودس ، بل وفى أن يكون هو بنفسه ، على رأس تلك الحملة وفكرة فتح رودس ، ملأت عليه قلبه ونفســه . وقــال للأركان : « ان لنا سفراً عظيماً في هذه السنة لم يكن هذا السفر ميسراً لآبائنا وأجدادنا قط بل الى الخلفاء السابقة أصلاً » .[2]

وكان السلطان يدرك تمامـاً أن رودس هي الحصــن الحصـين للصـليبية الأوروبية ،وأنهــا اســتعصيت على جده العــظيم ، فاتــح القسطنـطينية ، وعلى أجـداده جميعـا بسبــب الأموال الضخمة التي تنهال عليها من البابا ، والدول والهيئات المسيحية في أوروبا . ولهذا نراه عند الاعداد للحملة ، يأمـر بمضاعفـة الجهـد والاستعدادات ، ويتوقع أن يكون الصراع من أجلها صراعاً مريراً . وحـدد أهـداف الحملـة ضدها في أنها :

« أولاً وبالذات فتحه وخلاص ما فيه من المحبوسين . من الحبس وفتح طريق الحج من جانب البحر باذن الله »[3] .

خــروج الحملــة :

أمـر السلطـان وزيره مصطفــى باشــا ، بالاستعداد للتوجه الى رودس . وجمع مصطفى باشا جنده ، وأمرهم بجمع كل ما يحتاجونه لتلك المهمة العظيمة . وجمعت الحملة ما تحتـاج اليه من الأسلحة ، والأدوات ، والمهمات ، واهتم قواد الجند بكل شيء حتى أنهم : « باشروا الى جمع جميع ما لا بد منه في السفر الى البحر كالثـوم والبصل التي يدفـع بهما ضرر اختـلاف المياه والجبن والخل والخبز المجفف في التنور والسمك المقدد . »[4]

---

(١) مخطوطة فتح رودس ـ المكتبة الوطنية في باريس ـ ورقة ١٦ .

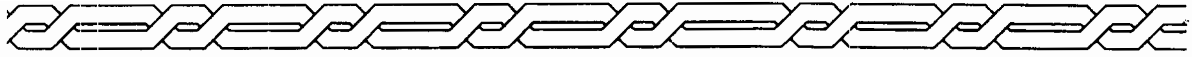
See: J. A. Marriot, op. cit., p. 88 ff.

(٢) مخطوطة فتح رودس ـ المكتبة الوطنية في باريس ـ ورقة ١٦ .

(٣) مخطوطة فتح رودس ـ المكتبة الوطنية في باريس ورقة ٢٥ .

See: Harold Lamp, Suleiman the Magnificent, New York, 1951, p. 63 ff.

(٤) مخطوطة فتح رودس ـ المكتبة الوطنية في باريس ـ ورقة ٤٣ .



وخرج مصطفى باشا من القسطنطينية ، في العشر الأوائل من رجب ٩٢٨هـ . وركب مع ملك البحر ، وألفين من جنود السلطان ، وثمانين ألفاً من خدام السفن ، ورجال البحر . ومر في طريقه الى رودس ببعض الثغور العثمانية ، ففرح بهم العلماء والأهالي فرحاً شديداً ، وأكرموهم اكراماً بالغاً ، ودعوا لهم بالتوفيق والسداد فيما هم مقبلون عليه من عمل اسلامي عظيم .

وصلت السفن العثمانية الى رودس ، يوم ٢٦ يونيو ١٥٢٢ الموافق ٤ شعبان ٩٢٨هـ ، بعد أسابيع ثلاثة ، من مغادرتها استانبول . وسد مصطفى باشا بسفنه الطريق ، المتوقع مجيء العون منها الى فرسان القديس يوحنا . ومرت السفن عدة مرات ، في مواجهة حصن رودس ، حتى تبعث الرعب في قلب المدافعين عنه ، باستعراض قوتها ، وحتى يتمكن الجنود العثمانيون من النزول الى البر . وهلل المسلمون وكبروا ، وانكمش المدافعون وراء أسوار القلعة ، وانتهز المسلمون الفرصة ، فأقاموا بالأخشاب والأوتاد جسرا ، في موقع اسمه « لمان » ونجح الجند في النزول الى البر ، وتمهيد طريق لسير الانسان والحيوان ، وبدأ حصار رودس .(١)

أما السلطان سليمان نفسه ، فانه خرج من القسطنطينية ، في ٢١ رجب ٩٢٨هـ ، الموافق ١٥ يونيو ١٥٢٢ . وتوجه الى كوتاهية وعسكر فيها يومين . ثم عقد في اليوم الثالث ديوانا عظيما للأركان والجند ، وبحث معهم اهمية الاستبسال في قهر الكفرة في رودس ودفع الظلم عن المحبوسين . وأمرهم بالالتزام بالنظم ، ومراعاة حسن الخلق ، وأن يكون ذلك : « بمنع العسكر في الطريق عن التجاوز الى زروع الرعايا وكرومهم وأثمارهم وأولادهم وأزواجهم » .(٢)

وتقدم السلطان ومن معه من كوتاهية الى أيلجة ، وأمر أحمد باشا ، بالانفصال عنه والتوجه بقوة بحرية الى رودس ، للمعاونة مصطفى باشا . وكان أحمد باشا معروفا ببسالته وشجاعته ، وقد أثبت ذلك بوضوح ، في العام السابق ، حين تمكن يوم ٨ يوليو ١٥٢١ ، من فتح حصن سبكز ، أقوى حصون الهنغاريين في االشمال . وكان سقوط ذلك الحصن القوي ، قد أدى الى سقوط بلغراد نفسها ، في يد قوات الصدر الأعظم بيري باشا ، يوم ٢٩ أغسطس ١٥٢١ .(٣)

---

(١) V. J. Parry, op. cit., p. 80

اسماعيل سرهنك ـ المرجع السابق ـ ص ٥٣٤ .

(٢) مخطوطة فتح رودس ـ المكتبة الوطنية في باريس ص ٥١ ـ ٥٢ .

See: H. Inalcik, The Ottoman Empire, The classical Age, 1300-1600, London 1973, p. 312 ff.

(٣) اسماعيل سرهنك ـ المرجع السابق ـ ص ٥٣٣ .



وافترق أحمد باشا ، عن السلطان سليمان في أيلجة، وتوجه الى ميناء مرمروس، وتوجه بسفنه الى رودس ، حيث لحق بالقوات العثمانية ، المحاصرة لقلعتها ، والمتمركزة عند منطقة أدة بقيادة مصطفى باشا .

ولكن السلطان سليمان لم يكتف بهذا المدد . وسار ببقية قواته من أيلجة الى ميناء مرمروس، ثم توجه بسفنه الى رودس ، فوصلها في شهر الصوم المبارك ، واستقبله الجند بالطبول ، وعلت أصواتهم بالتهليل ، والتكبير ، والدعاء بنصرة الاسلام والمسلمين .(١)

وجمع السلطان سليمان أركانه وقواده ، في ديوان كبير ، للتشاور في أمر فتح القلعة ، ولزيادة حماسهم للبذل والقتال . وتحدث السلطان أولا عن أهمية رودس ، لقربها الشديد للأراضي العثمانية فقال عنها : « قريبة مني غاية القرب بل واقعة في وسط المملكة التي فتحها آباؤنا واجدانا . »

ثم اوضح خطورة فرسان القديس يوحنا فقال في ذلك : « وكفار هذه القلعة سدوا طريق الحجاج والتجار من جانب البحر لهذا لم يتوجه الى الحج والتجارة واحد من المسلمين وان توجهوا اليهما من البحر يغلب الكفرة عليهم ويأخذون أموالهم ويحبسون أصحابهم » .

وأثار حديثه عن الحجاج الى بيت الله الحرام حماسهم وهالهم ما يقع لهم ، وهم في طريقهم لتأدية الفريضة ، التي هي ركن من اركان الاسلام . واستمر السلطان في حديثه ، عن ما يلقاه هؤلاء الحجاج ، وأولئك التجار من تعذيب وظلم ، على يد فرسان القديس يوحنا فقال : « ويكلفون عليهم أعمالا شاقة متعلقة لحفظ القلعة من الأعداء كحفر الخندق ويحبسونهم في الليل في المحبس العميق مقيداً من الرأس الى القدم بقيود متخذة من الحديد . »(٢)

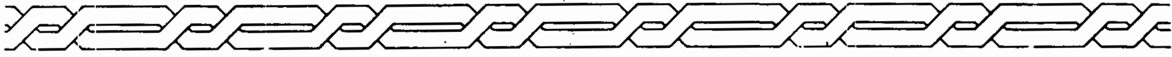
وتطرق السلطان سليمان الى الحديث عن عمه جم وكيف حبسه فرسان القديس يوحنا ، واستغلوا وجوده ، لابتزاز الأموال من السلطان بايزيد الثاني ، جد السلطان سليمان « وذكر أنهم رغم ما أخذوه من أموال ، لم يمتنعوا عن أعمال القرصنة ، ولم يتوقفوا عن مظالمهم للمسلمين » « بل كان فسادهم وظلمهم للمسلمين أشد من

---

(١) أرسل السلطان سليمان أمراً الى والي مصر خاير بك لكي يرسل عسكرا للمعاونة في فتح رودس . وأعد خاير بك في أواخر رجب ٩٢٨هـ تلك الحملة البحرية وجعل الأمير حاتم الحمزاوي قائداً للانكشارية منهم والأمير قايتباي الداودار قائداً على المماليك الجراكسة فقط ، وزودهم بالأموال والسلاح .

(محمد بن أحمد بن أياس الحنفي ـ بدائع الزهور في وقاع الدهور ـ تحقيق محمد مصطفى ـ القاهرة ١٩٦١ ـ ج ٥ ص ٤٦٤) .

(٢) مخطوطة فتح رودس ـ المكتبة الوطنية في باريس . ورقة ٧٤ .



الظلم الذي يكون عليهم قبل حبس المرحوم سلطان جم »[١]

واعترف السلطان في صراحة ووضوح ، أن قلعة رودس ، قلعة متينة التحصين ، قوية البنيان ، كثيرة السلاح ، وفرسانها مهرة ، يعلمون عن البحر أكثر من علم المسلمين به ، ويجيدون القتال وفنونه ، وهم يتغلبون في البحر دواما على ما يقاتلهم من المسلمين . وأوضح أن هذه الأسباب مجتمعة ، قد جعلتهم في منعة منيعة ، ولهذا لم يجيء الى هذه القلعة آباؤنا وأجدادنا خوفاً من المغلوبية من الكفرة . ومضت أعمارهم بفكر هذه القلعة والغم والهم . » وأنه لهذا قد أعد للأمر عدته ، وجهز لهذه الحملة تجهيزاً ضخماً ، غير كل التجهيزات المتعارف عليها في الحروب العادية ، ولهذا « جمعت عسكراً عظيماً غير قابل للعد والبيان وأمرت لجمع أضعاف جميع ما لا بد منه في السفر الى البر والبحر والى فتح الفتح » .[٢]

وأمر السلطان قواده ، بمحاصرة القلعة من البر والبحر . من البر بوضع المدافع ، ومختلف الأسلحة ، التي تقذف بالأحجار والنيران ، في موضع مناسب ، لضرب القلعة وهدمها ، مع التركيز بعدد كبير من الجند . ومن ناحية البحر ، بوضع عدد من السفن ، بقطع طريق أي عون بحري ، قد يرسله الصليبيون في أوروبا الى الجزيرة ، ووضع عدد آخر من السفن في مواجهة لمان ، وهي الترسانة التي جمع العدو فيها سفنه . وأمرهم بمواصلة الجهد ليلاً ونهاراً ، ومحاصرة القلعة من كل جانب ، والتوكل الكلي على المولى سبحانه وتعالى .

وبدأ الأركان عملهم في محاصرة القلعة الحصينة ، فكان كل واحد منهم ، مسؤولاً عن جانب من جوانب القلعة ، « وشرع كل واحد منهم في أول العشر الأوائل من رمضان الى هدمها بمعاونة العسكر متوكلا على الله تعالى وطالبا منه الاستعانة . »[٣]

محاولات الاستيلاء على القلعة :

بدأ الأركان حصارهم ، وضربهم للقلعة ، وانشغل بيري باشا ، الصدر الأعظم ، بجمع المدد لهم ، وشغله ذلك العمل شهراً من العشر الأوائل من رمضان ، الى العشر الأوائل من شوال ٩٢٨هـ ولم يبدأ بيري باشا ضربه للقلعة ، الا بعد أن أوصل المدد للأركان ، في كل جانب من جوانب القلعة . واختص بيري

(١) مخطوطة فتح رودس ـ المكتبة الوطنية في باريس ـ ورقة ٧٥ .

(٢) نفس المرجع السابق .

راجع : اسماعيل سرهنك ـ المرجع السابق ـ ص ٥٣٤ ـ ٥٣٥ .

(٣) مخطوطة فتح رودس ـ المكتبة الوطنية في باريس ـ ص ٧٧ ـ ٧٨ .

See: Stanford J. Shaw, op. cit., p. 88 ff.

باشا بضرب القلعة من ناحية من البحر ، قريبة من الموقع الذي كان مسيح باشا ، قد هاجم القلعة منه . واشترك مع بيري باشا الجنود المصريون ، الذين بعث بهم والي مصر ، للمعاونة في فتح الجزيرة ، وجند آخرون من أجناس مختلفة من رعايا الدولة العثمانية(١)

ويذكر بن زنبل الرمال صاحب مخطوطة سيرة الجراكسة ، وما وقع بينهم مع السلطان سليم ، عند حديثه عن السلطان سليمان ، وفتح رودس ما يلي : « وقد كان السلطان أرسل لخير بك أن يرسل له راية العقاب وهي من رايات النبي ﷺ . فأرسلها له وأرسل من شباب مصر نحو العشرين مركب »(٢)

وأعد فيليبر ، رئيس فرسان القديس يوحنا ، هو الآخر قواته من مختلف الأجناس للدفاع المستميت عن القلعة . فقد وفد الى الجزيرة فرسان وجنود من فرنسا ، وبريطانيا ، وايطاليا ، والمانيا ، بل ومن كل الدول الأوروبية الغربية ، بغية الدفاع عن الجزيرة ، التي كانت بالنسبة لهم ، قلعة المسيحية الأولى ، في وجه المسلمين وقواتهم ، بل هي في نظرهم قلعة المسيحية في قلب الأراضي الاسلامية(٣)

وأمر السلطان بأن يكون الهجوم على القلعة ، في اليوم الثاني من ذي القعدة ، ثم أجله الى اليوم الثالث من أجل إتمام الاستعدادات . وبدأ الهجوم مع طلوع شمس اليوم الثالث من ذي القعدة ٩٢٨هـ وكان هجوماً ضخما ، قتل فيه عدد كبير من المسلمين ، وعدد كبير آخر من الأعداء ، « وسال دم المقتولين والمجروحين من الطرفين من القلعة الى الأرض وكان الموضع المغاير من الأرض مملوءاً بدم المقتول والمجروح كالحوض بالماء وهلك المجروم الغير القادر على الحركة بالغرق في الدم(٤) »

وبدأ أحمد باشا ، في أواخر العشر الأوائل من شهر ذي القعدة ، خطة جديدة ، أساسها هدم سور القلعة في بعض المواضع ، بفئوس متينة من الحديد ، أعدها الحدادون لهذا الغرض ، واستمر في هذا العمل ، حتى نهاية

---

(١) وكان قاسم باشا فيما فوق بيري باشا بعسكر أناطولي وفيما فوقه مصطفى باشا بالرعايا وملوك الصناجق وفيما فوقه اياس باشا بعسكر الروم وغيره وفي مقابله جاكلق أحمد باشا مع أغا وغلمان الجندكار .

مخطوطة فتح رودس ـ المكتبة الوطنية في باريس ـ ورقة ٧٩ .

(٢) مخطوطة سيرة الجراكسة وما وقع بينهم مع السلطان سليم بن بايزيد بن السلطان محمد فاتح القسطنطينية من الحروب والقتال ـ المكتبة الوطنية في باريس ـ ص ١٢٤ .

(٣) Sydney, Nettleton Fihser, op. cit., p. 220.

(٤) مخطوطة فتح رودس ـ المكتبة الوطنية في باريس ـ ورقة ١١١ .

See: E. Erockman, op. cit., p. 312 ff.

ذي القعدة ، ثم أدخل أجزاء من الاخشاب وأحرقها ، لمدة ثلاثة أيام متوالية ليلاً ونهاراً . وسببت تلك النيران مع الدخان المتصاعد منها ، فزعاً شديداً للأعداء .

وأمر السلطان بهجوم شديد على القلعة حدد له يوم ٩ من المحرم ٩٢٩ هـ . وجعل الاشتراك في ذلك الهجوم اختياريا ، لمن شاء من الجند أن يشترك فيه ، على أن لا يفر من القتال ، ونادى المنادى بأن على من يرغب في الاشتراك في ذلك الهجوم ، ان يستعد للهجوم قبل طلوع الشمس ، لأن الجندكار أمركم بالشروع في فتح القلعة في اليوم التاسع من المحرم ووعد لكل واحد منكم مرتبة عالية مناسبة لحالكم وأمر لقتل فلر والرهبان والطغيان غير الصبيان والنسوان .[1]

قام المسلمون بالهجوم في الموعد المحدد ، ولكن النجاح لم يكن حليفهم ، وكثر عدد القتلى من الجانبين وزادت تلك المعركة الضارية حماس المسلمين ، وان هي الا أيام ، حتى نجح احمد باشا في هدم أسوار القلعة من ناحيته . وفي يوم ٢٠ محرم ٩٢٩هـ ، طلب فرسان القلعة الأمان والتسليم بشرط عفو السلطان عنهم . وقبل السلطان ذلك ، واستقبل رئيسهم وأكرمه . الا أن الفرسان نقضوا العهد ، وواصلوا القتال مرة أخرى .

نجاح الخطة والاستسلام :

تذكر مخطوطة فتح رودس ، أن شخصا من طرف الأعداء ، خرج من القلعة ، من الجانب الذي تجمعت فيه قوات أحمد باشا ، وأفضى اليه باسرار القلعة وحصونها ، وأن خير طريق للدخول اليها ، هو من الناحية التي عسكر فيها أحمد باشا وبيري باشا ، أما الناحية اخرى : التي عسكر فيها مصطفى باشا ، فقد كانت في رأيه لا تصلح لتقدم جيش المسلمين . وكان الرجل مسلماً مخلصاً ، وقد نصح لأحمد باشا بهدم قلة معينة ، قبل الهجوم على القلعة لأن بها عددا كبيرا من الأعداء ، سيهاجمون المسلمين ، اذا بدأوا في دخول القلعة . واقترح على المسلمين دخول القلعة ، بردم الخندق ، بالتراب ، والأحجار ، والأشجار ، ثم بوضع سلالم خشبية من الأشجار على السور ، وتسلقه . والمؤرخون الأوروبيون يبالغون في ذكر ، الذين عاونوا المسلمين من سكان الجزيرة ويذكرون أن المحبوسين من المسلمين ، وكثير من اليهود والنساء ، قد عاونوا جند سليمان وأمدوهم بالمعلومات اللازمة .[2]

---

(١) مخطوطة فتح رودس ـ المكتبة الوطنية في باريس ـ ورقة ١٢٩ .
راجع : محمد فريد بك ـ المرجع السابق ـ ص ٦٤ .
اسماعيل سرهنك ـ المرجع السابق ـ ص ٥٣٤ ـ ٥٣٥ .
(٢) مخطوطة فتح رودس ـ المكتبة الوطنية في باريس ـ ص ١٥٦ .

Stanford J. shaw, op. cit., P. 88.

وصاحب قلايد العقيان في فضائل آل عثمان يصف لنا ما فعله العثمانيون للاقتراب من أعدائهم وتقليل خسائر المسلمين فيقول : « فتأخرت عساكر البر قليلاً وساقوا الرمل والتراب أمامهم بحيث صار كالجبل وتترسوا به وصاروا يقدمونه قليلاً قليلاً الى أن وصل التراب الى الخندق وصار الكفار تحت المسلمين فرموهم بالمدافع والنيران . »(١)

وشيخ الاسلام محمد أبي أكرم البكري الصديقي يقدم نفس الصورة في مخطوطته فيقول : « وأمروا بسوق الرمل والتراب وترسوا بها وصاروا يقدموها قليلاً قليلاً الى ان وصل التراب الى الخندق وامتلأ به وأول من حمل في ذلك مولانا السلطان رحمه الله وصار الكفار تحت المسلمين يصابون ولا يصيبون ورموا عليهم الا أن عجزوا ووهنوا وتحققوا أنهم مأخوذون »(٢) .

واشتد الحال بسكان القلعة ، وفقدوا الأمل ، في أن تصلهم النجدة من الدول الأوروبية ، التي عملوا لحسابها سنين طويلة ، وناقشوا فرسان القديس يوحنا ، في ضرورة التسليم ، فلا أمل بعد ذلك في الدفاع عن القلعة . ووافق الفرسان على التسليم ، وسر سكان القلعة بالخلاص .

وفي يوم الخميس ٧ صفر ٩٢٩ هـ ، الموافق ٢١ ديسمبر ١٥٢٢م ارتفع علم السلطان سليمان فوق القلعة . وأطلق السلطان سراح المسلمين المسجونين في القلعة جميعا ، وصرف لكل واحد منهم خمسين درهما ، وحملتهم السفن العثمانية الى بلادهم في مختلف الأقطار الاسلامية ، وهم يلهجون بالدعاء لسليمان ، وجند الاسلام ، وحول سليمان كنيستهم الشهيرة بالسنجوان ، الى مسجد ، وصلى فيه صلاة الجمعة .(٣)

ويذكر بن زنبل الرمال ، ما وصل اليه حال سكان الجزيرة ، وفرسان القديس يوحنا ، من حال سيء فيقول : « فلما عجز ملكها وعلم أن لا قدرة لها على ذلك كتب ورقة ورمى بها في عود نشاب . فجاءت في طاقة الوزير الأعظم مضمونها أن سلطان رودس يريد لنفسه وماله وعياله الأمان من السلطان سليمان فأعطاه ما طلب . »(٤) .

وصاحب المنح الرحمانية في الدولة العثمانية يذكر أن الموقف حين اشتد على المحاصرين ،

---

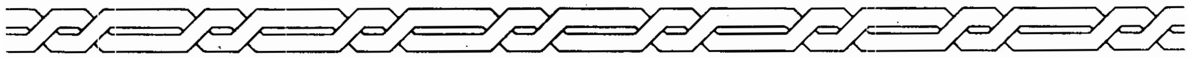
(١) مخطوطة قلائد العقيان في فضائل آل عثمان ـ المكتبة الوطنية في باريس . ص ١٦ .

(٢) مخطوطة المنح الرحمانية في الدولة العثمانية . المكتبة الوطنية في باريس ورقة ١٥ .

(٣) مخطوطة فتح رودس ـ المكتبة الوطنية في باريس ورقة ١٦٤ وما بعدها .

Stanford J. Shaw, op. cit., p. 88.

(٤) مخطوطة سيرة الجراكسة وما وقع بينهم مع السلطان سليم بن بايزيد بن السلطان محمد فاتح القسطنطينية من الحروب والقتال . المكتبة الوطنية في باريس ـ ورقة ١٢٤ .



طلبوا الأمان بشرط أن يحملوا نساءهم وأطفالهم ، ويذهبوا بهم من الجزيرة ، الى حيث يريدون ، فأجابهم السلطان سليمان الى ذلك ، رغم أن الوزراء قد حذروه من ذلك خشية أن يعودوا الى منازلة المسلمين . ويقع مؤلف المخطوطة هنا في خطأ جغرافي فيقول : « وخرجوا الى بلاد الغرب وعملوا قلعة في أسبانيا من جزيرة الأندلس يقال لها مالطة » .(١)

والخطأ واضح فيما ذكره عن مالطة وأسبانيا والأندلس . ثم هو يقع في خطأ تاريخي آخر في تحديد موعد الفتح فيقول : « وكان فتح رودس لست مضين من شهر صفر الخير ـ سنة ثلاثين وتسعمائة » .(٢)

والواقع أن السلطان سليمان ، قد عاملهم معاملة طيبة ، فقد سمح لفرسان القديس يوحنا وكبيرهم « فيليير » بمغادرة الجزيرة ، هم ومن يرغب من جنودهم ورجالهم وسكان الجزيرة . ومن تبقى منهم في رودس ، منحه السلطان الأمان والحماية ، وضمن له سلامة شخصه ، وأملاكه ، كما أمر السلطان باسقاط الجزية عن أهل الجزيرة جميعا عن المسيحيين ، لمدة خمس سنوات كاملة ، وأمر بالأموال الضخمة ، تنفق في اعادة بناء ما تهدم عن مبانيها وتعميرها . وانضمت رودس الى املاك الدولة العثمانية ، وهي في أوج قوتها ، وظلت جزءاً من أملاكها حتى نهاية الحرب العالمية الأولى .(٣)

د. محمد كمال الدسوقي
الاستاذ المشارك بكلية الشريعة

---

(١) مخطوطة المنح الرحمانية في الدولة العثمانية ـ المكتبة الوطنية في باريس ـ ورقة ١٥ .
(٢) نفس المرجع السابق .
(٣) محمد فريد بك ـ المرجع السابق ـ ص ٦٤ ـ ٦٥ .
د. محمد كمال الدسوقي ـ المرجع السابق ـ ص ٥٧ .